رسالة الشعر

ليس الشعر صنعة يمكن كل انسان احترافها ، ولا أداة يستطيع كل شخص امتلاكها ، وانما هو رسالة يلهمها الشاعر ، فاذا هو قد تبدل من نفسه نفسا أخرى ، تنظر الى العالم نظرة جديدة ، تغير قيم الاشياء فى رأيه ، وتعدل أقدارها ، نظرته لا تقف عند القشور ، ولا تنحجز عند اللفائف ، وإنما تنفذ الى اللباب ، وتتغلغل الى صميم الجوهر ؛ وما تزال هذه النظرة ترقى باحساسه وتسمو بقلبه ، حتى ترفع له الحجب عن الجمال الهاجع فى الكون ، وتكشف له الاستار عن سحره البديع وسره العجيب ، فيخر ساجدا أمام عرشه مفتونا بحسنه ، مأخوذا بروعته ، وما هى الا عشية أو ضحاها حتى يحس بشعور غامض غريب ، وحال نفسية شاذة ، لا يزال الان يتضخمان فى نفسه ، ويتبلجان فى قلبه ، حتى ينحسر عن رسالة شاقة ممتعة معاً ، هى رسالة الجمال ، فيترجح بين ستـرها ونشرها ، ويتردد بين إخفائها وإعلانها . بيد أن وسل الوحى لا تمهله ولا تتركه ، بل تتبعه وتقلقه ، وما تزال به حتى يذعن الى تلبيتها ، ويستجيب الى دعوتها ، فيتناول قيثارته السحرية ، ويوقع للناس عليها أفكاره الغنائية اللذيذة ، ويرتل عليها أناشيده الشعرية الجميلة ، محاولا بكل جهده أن يطلعهم على هـذه المعانى الموسيقية التى هى لباب كل شىء فى هذا الكون ، وصميم كل موجود فى هذا العالم ، وكل ماسواها إنما هو قشور وأغلفة ، فان جمال الطبيعة ونظام الكون إنمـا يتألفان من شىء يشبه النغمات الموسيقية وما بينها من ائتـلاف وانسجام ، ووحدة ونظام ، بل هو النغمات الموسيقية نفسها وما تحمل من رزانة وجمال ، وما تغشى من حسن وجلال . ولقد اهتدى أحد فلاسفة اليونان القدماء ببصيرته النافذة الى معرفة هذا السر الموجود فى كل كائن فقال : إن للأفلاك موسيقى تنظم حركتها ودورانها ، وتحفظ توازنها وبقاءها ، وأكبر ظنى أن اليونان شعروا منذ القدم بهذه الحقيقة الجميلة ، وربما كان هذا الشعور هو السبب فى نبوغهم فى فن الشعر ، وتفوقهم على العالم فيه ، فقد نظروا الى الطبيعة نظرة جمة الضياء ، غزيرة الشعاع ، فتبينوا باطنها وكشفوا داخلها ، وعرفوا أن الموسيقى هى قلبها بل هى جمالها وجلالها ، فأخذوا يقتربون منها ، يحاولون أن يعرفوا أسرارها ويمثلوا نغماتها ، فكانت هذه المثل العليا فى فن الشعر التى لا يزال شعراء العالم يحتذونها حتى الآن .

والمعانى الموسيقية التى يغنيها الشاعر لا ينقلها الينا من الطبيعة نقلا وإنما يمزجها بقلبه ، ويخلطها بدمه ، ثم يقدمها الينا فتؤثر فينا تأثيراً جميلا ، لأنها تصدر عن القلب ، وكل ما يصدر عن القلب يؤثر فى القلب ، ولكن جماعة من النقاد زعمت أن الشاعر لا يرينا شيئاً أكثر من الواقع الخارجى نفسه ، وكل ما يملك الشاعر تلقاءه إنمـا ينحصر فى كشف حقائقه ، وكأنهم أبوا إلا أن يفسروا كل شىء فى الوجود تفسيراً ماديا فأنكروا الخيال وأنكروا المثال ، وما عرفوا أن فى الوجود شيئاً آخر ليس حقيقة مقيدة ، ولا مادة محسوسة ، وانما هو نور يشع على وجه الطبيعة ، فيشرق على قلوب الشعراء ، ويخلط بما فيها من نعمة وبؤس ، وشقاء وسعادة ، وبكاء وفرح ، ويمتزج بما يسرى فى روعهم من خطرات وأفكار وخواطر وآراء ، فاذا هو نغم مزيج من الانسان والطبيعة ، وغناء خليط من قلبه وقلبها ، بل من خياله وجمالها .

وقد يكون من الجحود أن نقول إن الشعر من الأعمال الموضوعية التى لا يتبين لصاحبها فيها أثر ، والتى يقتصر فيها على ابداء الملحوظات وذكر التنبيهات ، فان الشعر ذاتيا أكثر منه موضوعيا وداخليا أكثر منه خارجيا ، وهو يعنى بتقديم شخصية صاحبه قبل عنايته بتقديم الموضوع الذى يحاول الكلام فيـه ، وما

توضع جنباً لجنب مع توابيت الآلهة وتحمل فى المواكب والاحتفالات معها . ٣ — أن تكون الأيام الخمسة الأولى من شهر توت أعياداً متصلة تقدم فيها القرابين ويلبس الناس فيها أكاليل الغار . ٤ — إضافة هذا اللقب الجديد الى ألقاب الكهنة « كهنة الاله المحسن الوهاب بطليموس ايفانس الذى ظهر على الأرض » وتنقش هذه العبارة على خاتم كل كاهن وتسجل فى كل وثيقة دينية . ٥ — للجنود أن يستعيروا من المعابد الصناديق التى تحوى صور بطليموس ويحملوها معهم الى ميادين الحرب تبركا بها . ٦ — كتابة صورة من القرار على حجارة من بازلت بلغة الآلهة (الهيرغليفية) وبلغة الأدب (الديموطيقية) ، وكذا باليونانية ويكون من بينها حجر كبير يقام فى الهيكل الأعظم جنباً لجنب مع تمثال بطليموس « الاله المخلد فى المعابد » .

عبد الفتاح الزيادى

التصويرات والأفكار الشعرية إلا الواقع كما نحلم به ونتخيله ، لا كما نراه ونشهده ، ولو كانت مهمة الشعر هي نقل مافي الطبيعة لكان تكراراً قليل القيمة ، ولو كانت هي فكرته عن الجمال لكان أقل قيمة وأدنى درجة ، وإنما تتركز مهمته السامية في أنه الحلقة الرابطة بين الطبيعة في أجمل مظاهرها وأسمى معانيها وبين روح الانسان ، وإذن فالشعر لايبتغي نقل حقائق الاشياء ولا اظهار جانب الحق وتزييف الباطل منها ، فان لذلك لسانا خاصاً يقوم به . ونحن لا ننكر أن الشاعر يحب الحقيقة فان الحقيقة في ذاتها محببة إلى كل نفس ولها سلطان على القلوب لا يمكن أحداً أن يجحده ، ولكننا نقول إننا لانريد من الشاعر بيان الحقائق ، وإنما نريد منه تحديثنا عن الجمال المستتر في الكون ، وتمثيل الموسيقى التي تؤلف بين أجزائه ووحداته ، وينبغي أن ننبه الى أن الشاعر يعرف الحقيقة معرفة أخرى غير المعرفة التي يعرفها الرياضي والرجل العادي ، وكأني بالشعر ينظر الى الاشياء من جهة خاصة به ، وينظر اليها العلم من جهة ثانية ، والدين ينظر اليها من جهة ثالثة ، وقد ينظر اليها الشعور العام من جهة رابعة ، أما هؤلاء الذين ينطقون عجبا قائلين أي حق هذا بينما يقرأون شعر الشاعر انما هم لا يعرفون كيف يستفيدون من الفن الاستفادة الصحيحة ، ولا ينتفعون به الانتفاع الواجب وهم يضيعون أوقاتهم من حيث لا يشعرون ، والا لو كان الامر كما يظنون لانقلب الشعر الى صور من الحجج والبراهين

على ان الحقيقة الواحدة قد تتبدل من حين لآخر أمام الشاعر الواحد ، ويتبين هذا في أننا نلاحظ ان الشاعر المحب إذا كان مسروراً نظر للطبيعة وبش للسماء ، وتخيل كأن كل شيء يحدثه ويضاحكه فالريح تسر إليه بأسم حبيبته ، والنجوم ترنو اليه بعين الحنان والعطف ، وكل شيء في الطبيعة يداعبه ويفاكهه ، أما إذا كان محزونا فان هذه الحقائق والأخيلة تتغير في رأيه ، وتختلف في نفسه فالريح تسخر من تأوهاته ، والنجوم القاسية تنظر إليه في غير تقدير ولا عناية ، وكل شيء حوله مناقض له ساخط عليه

قد يقول قائل إن الشعر يقوى ويوضح الاحساسات ويوسع الخيال ، ونحن نوافق على ذلك ونزيد أن الشعر قد يعمل على تنظيم مايضطرب في عقول الآخرين ، وانه قد يوقظ العقل ويوسعه بترقية الأحساسات وكثرة الأفكار التي يلقيها إليه ، ولكننا ننكر أن هذه هي غايته السامية ، فليست رسالة الشعر هي التثقيف كما قال هورس ، فللتثقيف أداة خاصة به والشعر لايزاحمه فيها ، وماجاء من ذلك إنما أتى عن طريق غير مباشر في عرض الرسالة وأدائها ، ولعل أعظم برهان على ذلك أننا لانسمع لشعر الشاعر ، ولالغنائه لأنه أكثر تفكيرا ، ولكن لأنه أكثر حساسية وأوفر شعورا ، والذين يشهرون الشعر على أنه فلسفة أو أخلاق أو يحاولون فهمه على هذا الأساس ، إنما هم مخطئون في معرفة رسالته ، فالشعر لم يرسل ليكون لسانا للفلسفة ، ولا أداة للاخلاق ، وأما هذه الأفكار التي قد نعثر بها عند بعض الشعراء فنظنها فلسفة أو أخلاقا ، فهي ليست من هذا الطراز الذي نعهده عند الفلاسفة ، ولا من المبادئ التي نعرفها عند الاخلاقيين ، وفهمها على هذا النحو خطأ من أساسه ، ونسيان لرسالة الشعر وغايته .

والشعر لايخضع لقانون خاص كقوانين العلم ، ولا أصول ثابتة كأصول الدين ، وإنما يحتاج إلى قوة التأثير التي تربط بينه وبين قلوبنا و تصل بينه وبين أفكارنا ، وذلك لأنه صلة بين صاحبه وبين قارئيه ، وبمقدار تلك الصلة من القوة والضعف تكون منزلته العلو والأسفاف ، وقد نستطيع أن نقول إن التأثير هو كل شيء في الشعر ، وهو سر خلوده ، وسبب بقائه على وجه الدهر ، وما الشاعر العظيم إلا الذي يشعر الأشياء التي تلمس قلوب الناس وتؤثر فيها تأثيرا عميقا ، ولقد كان قلب شاكسبير — كما يقول الانجليز — كأنه مخلوق من قلب الأنسانية ذاتها ، لأنه كان يتحدث فيلم بخطرات القلوب وخلجات النفوس ، ولقد كان لسانه — كما يقولون أيضا — كأنه يحفظ كل الكلام الانساني ، لأنه كان يعبر فيحسن التعبير ويؤثر فيجيد التأثير

وإنه من الحق هنا أن نذكر أن معظم شعرائنا لايتناولون بشعرهم مايتصل بحياتنا اتصالا مباشرا ، ولا ما يؤثر فيها ولو تأثيرا بعيدا ، كأنهم في شغل عنها أو في غفلة عن أمرها ، ولهذا فشعرهم لايقع منا إلا موقع الطنين المملوء والضوضاء الكاذبة ، فهو شعر لايمتزج بالنفوس ، بل لايتصل أي اتصال بالقلوب ، وما أشبهه بمدينة منهدمة لها سور لايكاد يقوم فلاهي تجذب العيون ، ولاهو يعطف القلوب ، وأكبر ظني أن هذا الخطأ الفاحش في فهم رسالة الشعر جاء هؤلاء الناس من أنهم يعيشون معيشة فنية صرفة فهم لايستمدون فهم من الطبيعة التي ينظرون إليها ، ولايتخذون ألوانه من الحياة التي يحيون فيها ، وإنما يجذبونه جذبا من دواوين أسلافهم ، ويسلبونه سلبا من موضوعاتها وأساليبها ، وكأنهم جهلوا أن الشعر هو نفس صورة الحياة معبرة في حقيقة الجمال الخالدة ، وموسيقاه المؤثرة ؟

شوقي ضيف